دراسات إفريقية

مجلة بحوث نصف سنوية

في هذا العدد

- القرآن وعلم الهجاء
  الدكتور جعفر ميرغني
- نشوء الدولة السودانية : منظور أركيولوجي - تاريخي
  الدكتور عبد الرحيم محمد خبير
- المسألة السودانية بين يدي العقد الأول من فواتيح الألفية الثالثة
  البروفسير حسن مكي محمد أحمد
- أولية الشعر العربي التشادي
  الدكتور عبد الله حمدنا الله
- أحمد بن إدريس المغربي وآثاره العلمية
  الدكتور يحى محمد إبراهيم
- النمو السكانى في إفريقيا
  البروفسير مصطفى محمد خوجلى

العدد الثامن والعشرون - السنة الثامنة عشر - ديسمبر ٢٠٠٢م / شوال ١٤٢٣هـ

شيخ انتاديوب وقضايا البحث في ماهية الثقافة الإفريقية

د. مهدي ساتي صالح *

مقدمة:

يعد المؤرخ السنغالى شيخ انتاديوب (وشيخ هنا اسم وليس لقبا) أحد أشهر علماء الآثار والمصريات I'Egyptyologie فى إفريقيا جنوب الصحراء حيث أوقف حياته البحثية الطويلة منذ أواسط القرن الماضى وحتى وفاته سنة ١٩٨٦م للدفاع عن الماضى الإفريقى من خلال سلسلة من المؤلفات والأوراق العلمية ، تؤكد جميعها دور الإنسان الزنجى فى البناء الحضارى بإعمار الأرض منذ بدء الخليقة ، وإنشاء اللبنات الأولى للإبداع البشرى عبر الإنجازات التى حققها زنوج إفريقيا على امتداد وادى النيل فى بلاد النوبة ومصر الفرعونية عبر القرون ، غير أن هذه الجهود البحثية والحيثيات التى بنى عليها الدكتور شيخ انتاديوب فروضه العلمية ، ظلت مكان ارتياب وحذر شديدين من قبل المدرسة الغربية لكونها فرضيات مثيرة للجدل وخاصة من قبل الأكاديمية الفرنسية التى ظل يخاطبها لانتزاع اعترافها بحكم ثقافته الفرانكفونية ، فالمدرسة الغربية كانت قد فرغت يومذاك من تصنيف الثقافات الانسانية وفق المنهج الذى ارتضته (الانثربولوجيا الكلاسيكية) والذى يقوم أساسا على مبدأ المفاضلة والربط المحكم بين (العرق)(Race)) و(الفكر) بصورة تعسفية تنفى عن (السود) إمكانات الإبداع والمشاركة فى البناء الحضارى لبنى البشر ، خاصة بعد أن كتب الفرنسى دى قوبينو مؤلفه الشهير فى (عدم المساواة) بين الأجناس Essai Sur L'inegalite فى القرن التاسع عشر فتأكد الربط بين الأجناس البيضاء و (الحضارة) باعتبارها مستودع الفكر والبناء والإنجاز فوجد هذا الربط استحسانا ملاحظاً فى دوائر الفكر والثقافة الغربية ،

* أستاذ التاريخ المشارك بمركز البحوث والدراسات الإفريقية – جامعة إفريقيا العالمية – الخرطوم

وعليه كان طبيعيا أن يواجه الباحث السنغالي صعابا جمة في اختراق هذا الاجماع ، غير أنه نجح أخيرا في أن يؤسس تيارا إفريقيا مصادما للقناعات الأوربية فيما يتعلق بالشأن الافريقي وذلك من خلال أبحاثه ومنشوراته التي نشطت مؤسسة (الوجود الافريقي في باريس Presence Africaine في نشرها تباعا ، وتابعت دوريات (ايفان) (I.F.A . Fondemental de l'Afrique Noire l'institute) (N المهمة في داكار ، وتقديرا لجهود شيخ أنتاديوب البحثية أطلق اسمه بعد وفاته على جامعة الدولة الرسمية في داكار تخليدا لذكراه .

إن بقاء معظم أعمال شيخ انتاديوب بلغتها الفرنسية الأولى دون تعريب يفّوت علينا في هذا الجزء من إفريقيا فرصة التعرف على مجمل آرائه وتعقب بعض استنتاجاته التي خلص إليها عبر منظوره اليساري الماركسي في استقراء الأحداث بالصورة التي تختزل الدور الحضاري للإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء ، وتجهد في الربط بين ثقافات شعوب هذه المنطقة وما مضى من ثقافات مصر الفرعونية التي سادت في الشمال قبل الإسلام ، فاضاف شيخ ديوب بذلك إشكالا جديدا لاشكالات البحث في ماهية الثقافية الافريقية المتعددة الأبعاد والتي شاركت فيها عوامل متداخلة .

بعض اشكالات البحث في ماهية الثقافة الإفريقية :

١- مسلمات الأنثروبولوجيا التقليدية الكلاسيكية :

خضعت مناهج البحث في الثقافة الإفريقية لمؤثرات أكاديمية ظلت تؤثر بصورة تعسفية على وسائلها في البحث والاستقراء ، ذلك أن الأنثروبولوجيا التقليدية كانت قد انتهت إلى الحكم بدونية الإنسان الأسود ، وساقت لذلك عددا من الأدلة الظنية ووفرت لحيثياتها في الموضوع مجموعة من الشواهد المادية الانتقائية لتقول صراحة ببدائية الثقافة الإفريقية وضعف مشاركتها في البناء الحضاري للإنسان ، وصاغت لذلك مصطلحات خاصة تواضع الباحثون على استعمالها في وصف الثقافات الإفريقية ومنها (البدائية Prim-itive) والبربرية الهمجية Barbarisme والتوحش Souvargerie وغير ذلك ، ولاقى ذلك قبولا في أوساط الغربيين الذين طوروا منذ زمان مبكر ، نمطا في التفكير يقوم على تصنيف الزنوج السود باعتبارهم كائنات تتميز بالافتقار إلى مقومات الإنسانية البشرية الكاملة ، وظلت تقارير الرحالة والقساوسة حول إفريقيا تعزز هذا المفهوم وتمكّن له ، في

ظل ثقافة ذات مؤثرات مسيحية حوت فيما حوت ، إشارات رمزية تتعلق بمفهوم (البياض) و (السواد) فى ألوان البشر إلى الحد الذى صارت فيه الخطيئة لاتعنى سوى (إ سوداد الروح البيضاء) ، على خلاف ماظل يؤكده الإسلام فى المساواة الكاملة بين الأجناس شعوبا وقبائل دون تمايز فى الأعراق والأجناس كما فى قوله سبحانه وتعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير) الآية (١)

إن تجذّر ظاهرة التمايز بين الأعراق ظاهرة تعود لأزمنة سحيقة حيث ظلت تؤثر فى الرؤى الغربية عند المؤرخين والباحثين منذ أيام هرودوت (٢) وفى ذلك يقول المؤرخ اليوغندى أوكت بتيك معلقا على منهج العلماء الانثربولوجيين الغربيين (على الرغم من اختلافاتهم الحادة فى مناهج البحث المعتمدة لدى كل فريق ، فإنهم مجمعون على تقسيم شعوب العالم الى مجموعتين ، المجموعة الغربية المتحضرة التى ينتسبون إليها ، ثم المجموعة الأخرى التى تضم بقية المجموعات البشرية وهى تلك الموسومة دوما لديهم بالتخلف والبدائية والانحطاط) (٣) ، وعليه فان تخطى هذه المسلّمات ظل ولا يزال يمثل إشكالا حقيقيا حيث يتطلب نقضها جهوداً بديلة تنفى ما شاع من افتقار السود الى مقومات الابداع والانجاز والمشاركة.

٢/ الآثار الثقافية للاستعمار :-

لما كانت الظاهرة الاستعمارية ظاهرة ذات دلالات ثقافية سالبة فى تاريخ الشعوب المستعمَرة ، كان طبيعيا أن يتولد عنها إشكال عويص حيث صاغ المستعمِر تاريخ شعوب تلك المستعمرات بالصورة التى تبّرر وجوده فى تاريخ تلك الشعوب ، فقد بنى الاستعمار مناهج المعرفة المدرسية قرابة قرن من الزمان فى إفريقيا وغيرها بالصورة التى تحقق أهدافه فى احكام السيطرة على تلك الشعوب ، وهنا فى إفريقيا عكف الاستعمار على صياغة مفردات الماضى الإفريقى بشكل يبرر وجوده بوصفه ناقلاً للحضارة والثقافة ، الأمر الذى رفع نداء ضرورة اعادة كتابة التاريخ الافريقى بصورة ملحّة فى أوساط الباحثين الإفريقيين ، باعتباره وسيلة لتجاوز هذا الإشكال ، وفى هذا المعنى يقول المؤرخ الافريقى جوزيف كى زيربو (Pendant des Siecles , depuis le XV siecle),

L'historie des Negres a ete brutalement Confisques au Profit de leurs maitres europeans , Notre desire est d'etudier notre histoire et

(٤)de redresser celle qui a ete faite sans nous ete contre nous

أو بعبارة أخرى (لقد تمت مصادرة التاريخ الإفريقى بعنف شديد لصالح السادة الأوربيين وذلك منذ القرن الخامس عشر الميلادى ، وعليه فرغبتنا تتلخص الآن فى إعادة دراسة تاريخنا وذلك لتصحيح ما كتب ضدنا دون علم منا) .

وبالطبع فإن استرجاع هذه المصادرة للتاريخ الإفريقى حسب عبارة كى زيربو يتطلب عزيمة وجهداً كبيرين بكونه نقضا لما وضع بعناية فائقة لتحقيق أهداف استعمارية خاصة وفى هذا المعنى كتب شيخ أنتاديوب يقول : (إن الهدف من كتابة تاريخ إفريقى يكتبه الإفريقيون ينبغى أن يحقق الغاية التى تجعل من الزنجى شخصا موقناً باستمرارية ماضيه وعظمته بغية اكتساب الوسائل الكافية لاسترداد موقعه المستلب فى خارطة الحضارات الإنسانية) (٥) وذلك دون شعور بالنقص والإزدواجية فى تعامل السود مع البيض بالصورة التى أشار إليها الكاتب المارتنيكى فرانز فانون F.Fanon فى كتابه بالفرنسية (بشرة سوداء واقنعة بيض) (٦) وقد عانى المؤرخ السنغالى (شيخ أنتا) نفسه من سخرية بعض الزنوج فى باريس بسبب النتائج التى توصل إليها يومذاك فيما يتعلق بمساهمة الزنوج الثقافية باعتبارها شطحات تفتقر إلى الموضوعية وعدوا مشروعه فى استنهاض الماضى الافريقى لمواجهة الحاضر والمستقبل ، ضرباً من ضروب الخيال خاصة عندما صرح شيخ انتا بأنه (لن يعرف الإفريقى أين يقصد إن لم يعرف من أين أتى ؟) (٧)

من جانب آخر كان لاستعمال وتطبيق بعض مصطلحات الثقافة الغربية المسيحية فى وصف وتقويم بعض حركات الإصلاح والدعوة الإسلامية فى إفريقيا، أثره الخطير فى تقويم زعماء وقادة الحركات وذلك للمشاحاة البينة فى الاصطلاح واختلاف الدلالات والمعانى لهذه المصطلحات فى الديانتين الإسلامية والمسيحية.

أخيرا فإن طبيعة هذه الدراسات الأنتروبولوجية والاركيجولوجية تشكل فى ذاتها إشكالات مثيرة للجدل وذلك لاعتماد هذه الدراسات على التصور الحدسى والافتراضات المبنية على شواهد وحيثيات غير قطعية الدلالة خاصة فيما يتعلق بفرضيات " أصل الإنسان " وكيفية تطوره خاصة بعد شيوع فرضيات شارلس دارون فى كتابيه ، أصل الأنواع ornigin of speciec عام ١٨٥٩م وأصل الانسان Descent of Man الصادر

عام ١٨٧٤م وما خلص فيهما من نتائج تعارض كل المعروف فى الديانات الكتابية عن أصل الانسان ، وقد أشار إلى ضعف المعرفة الإنسانية فى هذه الحالات الفرنسى كلود ليفى ستراوس بقوله (نحن لانعرف من الحضارات الغابرة سوى بعض الجوانب وهذه الجوانب نفسها تصبح أقل عددا كلما كانت الحضارة المعينة أكثر قدما) (٨) وظل ستراوس يؤكد فساد القياس فى هذه المسائل وخطل الاستنتاج المترتب على ذلك (٩) .

٣/ إشكال الواقع الافريقى :

ظلت ظروف بعينها تؤثر فى تشكيل هذا الواقع الإفريقى ومن بعضها العوامل البيئية والمناخية التى ظلت تمثل عائقا واضحا فى قضايا البحث والتوثيق فغزارة الأمطار فى المناطق الاستوائية على سبيل المثال تجعل بقاء كثير من الاثار التاريخية أمرا مستحيلا فى كثير من المناطق ، اضافة الى افتقار كثير من الحضارات الافريقية جنوب الصحراء خاصة الى الكتابة التى تعد عنصرا أساسيا فى فهم ماضى تلك الشعوب وثقافاتها ، الأمر الذى جعل من الروايات الشفهية oral tradations على اضطرابها وتداخلها فى كثير من الأحيان ، مصدراً رئيساً من مصادر التاريخ والثقافة الافريقية ، وقد أكد على ذلك المورخ للرواية الإفريقية الشفهية أحمد همباتى با فى مقولته بأن موت عجوز معمر واحد فى إفريقيا جنوب الصحراء يعنى ضياع مكتبة كاملة ..

ثم يضاف إلى كل ذلك خروج مشاريع البحث فى" الثقافة والتاريخ " فى إفريقيا من جداول أولويات التنمية فى القارة الإفريقية بسبب مطلوبات التنمية الاقتصادية العاجلة لمواجهة كوارث الحروب والفقر والجوع والمرض .

وأخيرا فإن بقاء لغة إفريقية كاللغة (المروية) دون مسعى جاد لاستكمال الجهود التى بذلت لحل رموزها يشكّل بجانبه إشكالا يحول دون فهم سليم لطبيعة العلاقات الثقافية فى تاريخ المجتمعات الإفريقية القديمة والحديثة ، ويفقد كثيرا من الدراسات التى تناولت البحث فى الموضوع ، كما هو بالنسبة لشيخ انتاديوب فى تأصيله للثقافات الإفريقية ، الشواهد اللغوية المعينة على فهم تطور هذه الثقافات الافريقية عبر القرون ..

المحاور البحثية لدراسات الباحث شيخ أنتا ديوب :

يمكن تصنيف المحاور البحثية لكتابات شيخ انتاديوب على النحو التالى : -

أ- دراسات فى التاريخ الفرعونى القديم. .

ب – أبحاث فى الانثربولوجيا (علم الإنسان).
ج – أبحاث فى اللغويات (اللسانيات).
د– أبحاث فى الفيزياء والذرة.
هـ – أبحاث فى الثقافة الإفريقية.
ز– أبحاث فى التقانات الحديثة للتأريخ.
ومن خلال هذه المحاور المتنوعة خلص المؤرخ الباحث إلى تحقيق عدد من الأهداف .

الأهداف البحثية للشيخ أنتا ديوب :

هدف شيخ انتاديوب الى تحقيق عدد من الأهداف والتى من أبرزها :

١– تأكيد ريادة الإنسان الإفريقى (الزنجى) فى إعمار الأرض بحسبان أن القارة الإفريقية السوداء هى مهد الإنسانية Cradle of humanity

٢– اثبات زنجية الحضارة المصرية الفرعونية القديمة وتأكيد مشاركة الجنس الإفريقى الأسود فى مسيرة البناء الحضارى .

٣– إثبات وحدة الثقافة الإفريقية.

وقد استعمل الدكتورالباحث عددا من الوسائل لبلوغ هذه الأهداف خاصة وقد كان أثرياً مختصا فى المصرياتL'Egyptoryie وفيزيائيا كيميائيا ذا المام واسع باللغة الهيروغلوفية وآدابها ، إضافة إلى إلمامه بعدد من اللغات الأوربية الحديثة خاصة الفرنسية التى حرّر بها مؤلفاته الكثيرة بحكم ثقافته الفرانكفونية ولعل من أهم هذه الوسائل التى توصل بها الباحث السنغالى الشهير إلى أهدافه :

١– المصادر الدينية :

رجع الباحث الى بعض نصوص العهد القديم خاصة ، وذلك فيما يتعلق بأبناء حام فى سفر التكوين ليخلص من ذلك إلى أن التراث السامى ظل يضع مصر فى قائمة بلاد السود.

٢/ المصادر التاريخية القديمة :

تتبع ديوب اشارات قدامى المؤرخين الإغريق من أمثال هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد وكذلك ارسطو ولوكيانوس وديودورس الصقلى (٦٣ ق .م –١٤م) وغيرهم وذلك بوصفها مصادر تاريخية لإثبات زنجية الفراعنة القدماء فى مصر .

٣/ المعطيات الاركيولوجية الآثارية :

بنى شيخ انتاديوب فرضياته المختلفة على كم هائل من نتائج وحيثيات علم الآثار، فبطبيعة عمله وتخصصه فى فرع المصريات ، ظل يتابع أهم نتائج أبحاث البعثات الأثرية الفرنسية والبريطانية والامريكية والألمانية وغيرها فى وادى النيل (مصر وبلاد النوبة السودانية) فوفر بذلك لأبحاثه إطارا ماديا مقبولا.

٤٠ المعايير الانثربولوجية فى الاستنباط :

طبق المؤرخ السنغالى كثيرا من معايير البحث الأنثروبولوجى الطبيعى-Physical An thoropogy والاجتماعىSocial Anthropology والثقافى-Cultural An thopology على أعماله البحثية ، ومعلوم أن "الأنثروبولوجيا "أو علم الإنسان كان قد بنى فرضياته فى هذا العلم على ضوء معطيات علم الاحاثة Palaeontology'1 والآثار والجغرافيا الطبيعية وانتهى باعتماد نظرية (التطور) التى أرسى عليها الغرب مقومات معرفته بمايعرف بالانسان (الأول) ومراحل تدرجه خلال العصور الحجرية الأولى وذلك من مراحل شبيهة بالقرد الى مراحل شبيهة بالانسان (السائر على قدميه معتدلا) إلى مرحلة الإنسان الصانع للأدوات الحجرية Homo - Habitis وأخيرا مرحلة الإنسان العاقل Homo - Sapiens منذ حوالى ٠٠ر٧٨٠و١ سنة مضت ، وقد أحدثت نتائج حفريات دكتور ليكى Dr. Leakey فى شرق كينيا أوائل الستينيات فى القرن الماضى ، ثورة فى هذا المجال بنى عليها شيخ أنتاديوب فرضياته فى أسبقية الإنسان الزنجى فى إعمار الأرض .

من جانب آخر أستفاد ديوب من معطيات العلوم الأنثربولوجية فى استقراء مناشط وثقافات المجتمعات الإفريقية التاريخية والمعاصرة فعكف يقارن فى هذا الجانب بين القيم والمظاهر الاجتماعية فى كل من مجتمعات مصر الفرعونية ومجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء لإبراز القيم المشتركة بين الجانبين والتى تمثلت فى كثير من الممارسات المشتركة ومنها عادات الختان والمعتقدات (الطوطمية) وطرق تصفيف الشعر واستعمال النساء للحناء وماشابه ذلك ..

٥/ مباحث علم اللغة(الفيلولوجيا) والتحليل اللغوى :.

أقام شيخ ديوب جزءا كبيرا من فروضه التاريخية على مقتضيات علم اللغة والفلولوجيا عموما حيث عوّل كثيرا على مسألة الاشتقاق اللغوى Ethmology فى إثبات الصلة بين اللغة الهيروغلوفية القديمة وبعض لغات ولجهات غرب إفريقيا على وجه الخصوص ، ومعلوم أن الفيلولوجيا أو (اللسانيات) تعنى بدراسة النصوص من حيث القاعدة ومعانى المفردات وما قد يتمخض عن ذلك من دلالات ومعطيات تاريخية واجتماعية وثقافية ، وقد دلت دراسات بعضهم على إمكانية وجود أصول تاريخية مشتركة للغات لاتبدو فى ظاهرها متشـــابهة (١٠) ، وهـــو بعض ما تقوم به الفيلولوجيا المقارنة Comparitive Philology وهى التى استخدمها الباحث المؤرخ فى المقابلة والمقارنة بين عدد من الكلمات والألفاظ فى الهيروغلوفية ورصيفاتها الولوفية (السنغالية) والفلانية التكرورية وقد انتهى فى هذا المجال الى نتائج طريفة ملفتة للنظر .

٦/ مباحث علم الاجتماع :

درس شيخ انتاديوب تطور المجتمعات الإفريقية الزنجية على ضوء معطيات علم الاجتماع Sociology فنظر إلى حركة فئات أو شرائح المجتمع المختلفة من خلال ما أسماه بديالكتيك العلاقات الاجتماعية ، وطفق يتتبع آثار حركة انتقال الآنسان الإفريقى بثقافاته المختلفة داخل وخارج القارة مع الإشارة إلى أثر الأديان الكتابية فى ثقافات هذه الشعوب من منطلق قناعاته الفكرية الفرانكو - ماركسية حيث يكثر عليها من الاستشهادبفرضيات (ماركس) و (انجلز) و (لينين) مع محاولة تطبيق منهج النظر الديالكتيكى فى تفسير حركة وتطور هذه المجتمعات الإفريقية.

٧/ وسائل التحاليل المعملية الحديثة :

اعتماد (ديوب) على وسائل التحاليل الكيمياوية والمجهرية (المايكروسكوبية) فى الوصول إلى نتائجه النهائية حيث عكف على دراسة عدد من مخلفات الموميات المصرية القديمة وذلك عن طريق إخضاعها لبعض الفحوصات المعملية المتاحة كما أفاد فى أبحاثه من بعض التقانات المستحدثة فى مجال الآثار والتى منها :

أ- طريقة التأريخ بكربون ١٤ المشع Carbon14 Dating systim

وهى طريقة معملية تستعمل لتقدير أعمار بعض المخلفات العضوية Organic المحفوظة فى المتاحف أو المكتشفة ، وهى طريقة تقريبية فى تحديد عمر تلك المخلفات وتعد طريقة باهظة التكاليف إضافة إلى أنها تتطلب اتلاف جزء من تلك المخلفات بحرقها(١١) ولذا وجد الباحث عنتا كثيرا فى الحصول على عينات صغيرة من تلك الموميات المصرية وبذل شيخ ديوب جهدا كبيرا فى تأسيس وتطوير معمل (كاربون ١٤) فى I.F.A.N التابع لجامعة داكار حيث عمل مديرا له حتى وفاته .

ب/ الطريقة المعملية فى قياس نسبة الميلانين :

وتعد هذه الطريقة من طرق التحليل المجهرى المستعملة فى المختبرات والمعامل لقياس نسبة الميلانين وهى المادة الكيمائية الدالة على لون البشرة والجلد فى الخلايا ، حيث تبقى هذه المادة الصبغية آلافا كثيرة من السنين فى الموميات المحنطة ، ولما كانت هذه الأصباغ لاتوجد بنسب عالية إلا فى الأجناس السوداء فقد أخضع الباحث عددا من العينات المستخلصة من بعض الموميات المصرية فى(متحف الإنسان) فى باريس وI.F.A.N ، للفحص المعملى لإثبات انتماء الفراعنة المصريين إلى الجنس الزنجى الأسود(١٢)

مجمل نتائج أبحاث شيخ أنتا ديوب :

أولا: أسبقية وقدم الحضارة الزنجية:

خلصت نتائج أبحاثه فى هذا الجانب إلى أسبقية الوجود الزنجى وحضاراته وذلك وفقا لنتائج حفريات د. ليكى وزوجته فى شرق إفريقيا فى يوليو ١٩٥٩م حيث تم العثور على جمجمة إنسانية يعود تاريخها إلى حوالى مليونى عام ولما عثر بجانب تلك الجمجمة على بعض الأدوات الحجرية فقد سمى إنسان هذه الجمجمة بالإنسان الصانع Homo-habilis وبمزيد من التنقيب الأثرى فى نفس القطر الكينى توصل د. ليكى إلى اكتشاف أجزاء من جماجم بشرية أخرى تنتمى هذه المرة الى مايعرف بالإنسان (العاقل) أو (Homo - Sapiens) ويعود تاريخها الى مابين ٥٥ إلى ٦٠ ألف سنة قبل الميلاد علما بأن ظهور بقايا هذا الإنسان(العاقل) تعود فى أوربا إلى وقت متأخر يقدر بحوالى ٣٠ إلى٤٠ سنة قبل الميلاد ، الأمر الذى يرجح قياسا أسبقية الوجود الفعلى والحضارى لإنسان إفريقيا الزنجى(١٣) من هنا خلص شيخ أنتا ديوب إلى أن الجنس الزنجى سابق

فى الوجود لغيره من الأجناس ، وأنّ منه انبثقت الأجناس الأخرى وذلك منذ ظهور مايسمى بالإنسان (العاقل) على وجه البسيطة (١٤) وعليه فقد أنتج العنصر الزنجى ، الصانع للأدوات الحجرية فى ذلك الزمان ، وفق حيثيات شيخ انتاديوب ، قمة تقانات ذلك العصر الحجرى البايولوتيكى الأول Pale'olitique حيث سجل بذلك سبقا إبداعيا حضاريا مقارنة مع العناصر الإنسانية الأخرى مثل الكرومانيين Cro Magnon وسائر السلالات الأوربية (البيضاء) مثل اللوكديرميين Leucoderme الذين لم يشكلوا وجودا قبل ٢٠٫٠٠٠ سنة فقط ، ويعدهم شيخ أنتا - على بياضهم -هجينا من السود والبيض الذين تكونوا فيما بعد فى ظل الظروف الجليدية التى اجتاحت أوربا وأن هذا العنصر أخذ شكله الأبيض الحالى فى جنوب فرنسا وأسبانيا (الباسك) فى نهاية العصور الجليدية فى فترة تمتد من ٤٠٫٠٠٠ أو ٢٠٫٠٠٠ سنة ، ويضيف ديوب أن عنصر الزنوج الأقدم وجودا فى الكون والأرقى حضارة يومذاك ، هاجر إلى اوربا وآسيا عبر مضيق جبل طارق وبرزخ السويس وربما عن طريق صقلية وجنوب إيطاليا .(١٥) ومما يجدر ذكره هنا أن فرضية ديوب هذه ظلت تجد سندا ضمنيا فى كثير من الدراسات التى أجراهاعلماء الآثار الغربيون حيث تقول الموسوعة الأثرية العالمية (ولازلنا لانعرف لأى جنس ينتسب سلفنا نحن المعروفين باسم الهوموسابينز Homo -Sapiens . إن علماء التشريح متفقون بصفةعامة ، على أنه ربما كان جنس الإنسان (القرد) هو الجد الأعلى لجنس الإنسان ، وأن الانسان (القرد) بدوره ربما كان قد تطور من نوع قريب الشبه بنوع قرد(الجنوب) غير أنه يبدو أن جنس الإنسان العاقل Home -Sapiens ربما نشأ أولا فى إفريقيا ثم هاجر إلى أوربا بعد نوبان الثلوج فى نهاية عصر الجليد حيث لقى هنالك فى ذلك الوقت جنسا من الإنسان أكثر بداءة منه وإن كان ينتسب إليه من بعيد) (١٦)

وهكذا خلص شيخ أنتاديوب عبر حيثيات معقدة ومتداخلة إلى إن انسان إفريقيا الأول كان رائدا فى الإبداع الحضارى ولم يكن تابعا .

ثانيا : إفريقية الحضارة الفرعونية :

ظل أمر البحث فى هوية الجنس المؤسس للحضارة الفرعونية أو مايعرف فى أوساط الأثريين ب Dynastic Race يمثل هاجساً قديما لتلك الأوساط الغربية التى استبعدت

منذ البداية انتساب هذه الحضارة إلى عناصر إفريقية سوداء ، ومن ثم تضاربت الأقوال فى الأصول العرقية المكوّنة لتلك الحضارة منذ أواسط القرن الماضى ، غير أنه ومع الإنحسار النسبى لموجة العنصرية العرقية التى سادت الفكر الأوربى ، بدأت الآراء تتجه تدريجيا نحو إفريقية الحضارة الفرعونية – دون تصريح بزنجيتها – وخاصة بعد استقلال الأقطار الإفريقية فى الستينيات فى القرن الماضى وقد أشار إلى ذلك شيخ أنتاديوب فى مقدمة أحد أعماله بقوله(لقد بدأ علم المصريات l'Egyptologie يتعاطف مع إفريقيا السوداء)(١٧) ، ففى الوقت الذى أرجع فيه المؤرخ البريطانى مايرز أصل المصريين القدماء فى مؤلفه فجر التاريخ The Daun of History إلى عناصر من (البربر) الذين سادوا شمال إفريقيا مع وجود ثمة صلات تربط بين هؤلاء المصريين القدامى وأجناس عربية كانت تقطن شواطىء البحر الأحمر (١٨) طرح الفرنسى الآثارى بوزينر فى معجم الحضارة المصرية القديمة حلا توفيقيا يرجع تلك الأصول القديمة للمصريين إلى عناصر مشتركة من (البيض) و (السود) فكتب فى ذلك قائلا (لقد اختلطت الأجناس الأوربية السائدة فى الشمال بالأجناس الزنجية السائدة فى الجنوب ، ولاسيما فى منطقة طيبة (النوبة العليا) ومن السهل إدراك عدم صواب الرأى الذى يميل إلى أن ينسب ماضى مصر إلى شعوب البحر الأبيض المتوسط البيضاء ، أو إلى شعوب إفريقيا الزنجية .. لقد اختلطت هذه الشعوب اختلاطا قويا على ضفاف النيل قبل أن تخلق الحضارة الفرعونية) (١٩) وبمرور الأيام قوى الاتجاه نحو إثبات قدر من المشاركة الزنجية ، فى التاريخ المصرى القديم ، على الأقل فى بداياته الأولى السابقة للعصور الفرعونية ، وفى ذلك يقول المؤرخ البريطانى Gordon Chilide فى جامعة لندن "إهناك دون شك مايدعو للظن بأن زنوج أعالى النيل البرابرة المتخلفين –هكذا – يمكن أن يكونوا افتراضا أسلافاً لمكونى الحضارة البدارية (المصرية القديمة)، إلا أنه لايوجد على الاطلاق دليل يمكن أن يكون شاهدا فى الربط بين الحضارة المصرية القديمة والحضارات السودانية)(٢٠) ويعوّل الكاتب هنا كثيرا على قضية عدم التتابع بين الحضارتين أو مايعرف ب Cultural Sequence ، فى الوقت الذى يورد فيه آراء (كابارت) وغيره فى أن بعض القرى فى حضارات ماقبل التاريخ بمصر كانت تقوم على أسس طوطمية تماما كقرى الدينكا فى أعالى النيل (٢١) وقد درس بازل ديفرسونBasil

Davsids on مجمل هذه الأقاويل وخلص إلى أن القول بعدم إفريقية الأصول المكونة للحضارة المصرية لايجد سندا فى الواقع (٢٢) وهكذا تراجعت كثير من الأفكار التعسفية التى أوردها أعلام الفلاسفة والمؤرخين الغربيين فى شأن الزنوج منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، يوم كتب الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel على سبيل المثال ، يقول فى مؤلفه The philosophy of History إنه يستغرب من قيام حضارة كالحضارة المصرية فى قارة موصوفة (بغباء أهلها) حسب عبارته! (٢٣)

خلص شيخ انتاديوب من جانبه – فى تحليل ماسبق إلى القول بأن فى الأمر – مؤامرة أكاديمية تهدف إلى الحيلولة دون انتساب هذه الحضارة الفرعونية إلى أهلها الزنوج السود ، واضاف بأن أركيولوجيا العصور الاستعمارية هدفت فى بعض ماهدفت إليه إلى (تبييض) المنجزات الإفريقية حسب تعبيره ، وأخذ يشكك فى مقاصد علم المصريات LEgyptologie قبل الاستقلال بقوله (لقد ولد علم المصريات لوأد الأمومة الزنجية للحضارة الفرعونية ، ومن ثمّ إسقاط تلك الأمومة بالكلية من ذاكرة التاريخ) (٢٤) ولتأكيد هذه الأمومة الزنجية للحضارة المصرية ، أورد شيخ انتاديوب فى البدء شواهد من سفر التكوين يفهم منها أن المصريين لم يكونوا بيضا وأنهم إنما من أبناء حام ، ثم أورد بعد ذلك عددا من إفادات قدامى المؤرخين الإغريق التى تؤكد زنوجة سكان مصر فيما قبل التاريخ وكتب فى هذا يقول (لم يثر التصنيف الجسدى للمصريين القدماء أى مشاكل لدى الكتاب الإغريق واللاتينيين المعاصرين لهم ، فالمصريون كانوا زنوجا مكتنزى الشفاه لهم شعر مفلفل وأرجل رفيعة ، وإجماع تأكيد الكتاب على حقيقة جسدية بارزة تتعلق بجنس شعب ما ، أمر يصعب التقليل من شأنه أو تجاهله).

بعد ذلك تناول(ديوب) حيثيات الأبحاث والكشوفات الأثرية ، ونبدأ هنا بوصف المصريين لأنفسهم فيما تركوا من كتابات ونقوش مدونة ، فأورد كيف أنهم أطلقوا على أنفسهم لفظ (كمت) بالهيروغلوفية والذى يعبر عن (السواد) ويستشهد بعد ذلك ببعض صور مؤسسى الأسر الفرعونية الأثرية ومنها صورة أحد فراعنة الأسرة الأولى (نارم) وكذا الفرعون (زوسر) أحد فراعنة الأسرة الثالثة ، وكلا الصورتين تبرزان حقيقة وبوضوح ملموس زنجية الملكين المؤسسين من حيث شكل الأنف والشفاه الغليظة ،

وذلك بصورة لاتخطئها العين المجردة ، وبعد هذا يشرع شيخ انتاديوب فى تأكيد الأمومة النوبية (السودانية) السوداء لتلك الحضارة الفرعونية وهو رأى ظل يشاركه فيه كثيرون كان من أشهرهم الدكتور براين هيكوك من جامعة الخرطوم وآخرون حتى أثبتت نتائج حفريات (كيث ستيل) من جامعة شيكاغو ، فى قسطل ببلاد النوبة ، ودراسات بروس وليمام ١٩٧٨ مصداقية هذه الآراء (٢٥)

أما فيما يتعلق باستعماله لمعطيات الدراسات الانثربولوجية فقد ظل يردد بأنه على الرغم من الطبيعة التعسفية للمعايير الأنثروبولوجية ، فإن قرائن الأحوال والنتائج المتحصلة من هذه الدراسات على علاتّها - ترجّح صلة الفراعنة القدماء بأسلافهم الزنوج الإفريقيين وذلك من نتائج فحص الجماجم الأثرية القديمة ومضاهاتها بالجماجم المعروفة للسود من حيث المقاييس المتفق عليها فى الأنثربولوجية الطبيعية ، من جانب آخر يشير أنتاديوب إلى بعض الممارسات والعادات الاجتماعية التى يراها مشتركة بين المصريين القدماء والزنوج السود عموما ، ومن تلك وسائل التجميل عند نساء المجموعتين كاستعمال الخضاب (الحناء) وتسويد الشفاه السفلى مع الاستعمال المطلق لخصل الشعر المستعار (البواريك) أو وصل الشعر عند ضفره بضفائر مستعارة ليبدو أكثر جمالا، وهنا يسخر (ديوب) من أى افتراض يجعل من شعر المصريات فى التاريخ القديم شعرا طويلا مرسلا كشعر السلالات البيضاء وهن يستعملن هذه الخصل المستعارة ، وينتهى إلى أنه إن صحّ ذلك فإن المرأة المصرية القديمة تكون أول امرأة فى التاريخ تسعى لاخفاء شعرها الطبيعى الطويل ببواريك من الشعر والألياف المصنعة! (٢٦) ويضيف بأن شعر المصريين القدماء كان أسود مجعدا وأنه وإن بدأ فى بعض الأحيان مرسلا فما ذاك إلا من اختلاط المصريين (السود) بشعوب السلالات الأخرى ، ثم يدعم (ديوب) حيثياته السابقة بشواهد انثروبولوجية تفيد باشتراك المصريين القدامى والزنوج فى شيوع ظاهرة (الطوطمية). فى الثقافتين الفرعونية والزنجية ، ليخلص إلى التشابه الكبير بين المجموعتين ، ثم طفق شيخ انتاديوب بعد ذلك يقارن بين كثير من مفردات وتراكيب اللغة المصرية الهيروغلوفية واللغات الإفريقية فى غرب إفريقيا خاصة الولوفية السنغالية والفلانية والسرية والتكرورية ، مستعملا فى ذلك معطيات علم اللغة (الفيلولوجيا) ومايتصل بذلك من تشابه فى المعانى والتراكيب فأورد فى أبحاثه قوائم طويلة تعطى انطباعا طريفا فى

التشابه الدلالي واللفظي في بعض الأحيان على الرغم من الفاصل الزمني العميق الذي يفصل بين هذه الألفاظ ، وأخيرا فقد أضاف شيخ ديوب إلى دفوعاته في إثبات زنجية الحضارة المصرية حيثيات تقوم على نتائج أبحاثه المعملية من معمل كربون ١٤ وفحوصاته المجهرية فيما يتعلق بقياس نسبة الميلانين وتوّصل من خلال تلك الفحوصات التي أجراها على عينات من موميات قدامى المصريين إلى ارتفاع نسبة هذه المادة الصبغية في جلود تلك الموميات مما يعني انتماءها إلى أصول زنجية سوداء حيث تكثر نسبة هذه المادة في بشرة هذه الأصول وهكذا جمع شيخ انتاديوب شواهد متعددة الدلالات ليثبت للجميع زنجية الحضارة المصرية الفرعونية القديمة ، ومن ثمّ مشاركة الإنسان الأسود ، بهذه الحضارة الرائدة ، في عملية البناء الحضاري لبني البشر .

٣- إثبات وحدة الثقافات الإفريقية:

سعى شيخ انتاديوب من خلال بعض أعماله إلى إثبات وحدة الثقافات الإفريقية وخاصة في كتابيه Nations Negres et Culture(الشعوب الزنجية والثقافة)L'Afrique Noire Precoloniiale أو "إفريقيا السوداء في عصور ماقبل الاستعمار ،" فقد بنى حيثياته في هذا المجال على وحدة الأصول الإفريقية ، وكونها تعود جميعا لأصل الإنسان العاقل الذي وجد في منطقة كينيا والبحيرات الكبرى ، ويقول في هذا :(كثير من شعوب غرب إفريقيا يدعون المجيء من شواطىء المياه الكبرى التي في الشرق ، وشعوب الجنوب الافريقي تدعي أنها أتت قديما من الشمال ، فيما توجد أصول المصريين القدامى في بلاد النوبة ، وبعد جفاف الصحراء(الكبرى) فيما يبدو حوالي ٧٠٠٠ سنة ، بدأت حركة المواطنين السود نحو التغلغل الى داخل القارة ،(وعليه يمكن الآن أن نرجع أصول كل السود الموزعين في القارة إلى موطنهم الأول في حوض النيل بدءا عن منابعه عند البحيرات الكبرى) (٢٧)

ثم يتناول (ديوب) بعد ذلك القواسم الثقافية المشتركة بين المجموعات السكانية في غرب إفريقيا والسنغال خاصة فيقرر بأنّ الأرومة الفلانية على سبيل المثال كانت قد تكونت في منطقة الغرب الإفريقي حيث التقت دماء المور السامية بالدماء الزنجية ، وإن كانت الأصول الأولى المكونة لهذه المجموعة الفلانية أصول شرقية ، ثم يوضح بعد ذلك اشتراك هذه المجموعة (الفلانية) مع المصريين القدماء (الفراعنة) في استعمالهم للأسمين

الطوطمين (كا) و (با) مع ما فى هذين الاسمين من دلالات ميتافزيقية وتعبيرية، ويقول بأن ال (كا) تعبير يدل على الجزء الظاهرى للموجود السامى فى السماء وأن(با) والتى تعنى بالولوفية السنغالية(النعامة) ، فهى فى الهيروغلوفية طائر برأس إنسان يعيش أيضا فى السماء ، وهكذا ، ويضيف شيخ أنتاديوب كيف أن هذه الألفاظ صارت أسماء مطلقة فى البولارية (الفلانية)(٢٨).

يواصل (ديوب) سلسلة فرضياته فى أصول المجموعات الإفريقية فيؤكد الصلة بين التكرور فى السنغال والنوير فى جنوب السودان ، وكيف أن المجموعتين تشتركان فى أسماء طوطمية واحدة على الرغم من آلاف الكيلومترات التى تفصل بين الجماعتين ويضرب لهذا أمثلة ببعض الكلمات المشتركة ومنها كلمة (كان) (Kan) وكلمة (وان)، (Wan) و (سى) فى السنغال وسى (Ci) فى السودان ، ويضيف إلى ذلك أنه تعيش فى السنغال وجبال النوبة السودانية قبيلتان باسم (نيورو) (Nyoro) و (تورو) (Toro) الأمر الذى يؤكد – كما يقول – مسار الهجرات القديمة للتكرور من أعالى النيل إلى مناطق مابين السنغال والنيجر التى عاش فيها التكرور وكانت تعرف باسم(نيورو) (Nyoro) (٢٩) ويستمر شيخ أنتا فى مقارناته المؤكدة لوحدة الثقافة الإفريقية فيذكر كيف أن لقب ملكات (مروى) كان هو نفس اللقب الذى ظل يحمله ملوك(جاو) فى مملكة صنغاى ، وكيف أن نساء هذه المنطقة كن حتى القرن العاشر الميلادى يستعملن نفس الشعر المستعار (البواريك) التى كانت شائعة فى مصر وبلاد النوبة ، ويضيف مستشهدا ببدج Budge أخصائى المصريات بأن ثمّة مكان كان يسمى ب (كاو) دون تحديد فى بلاد النوبة ، فيرى فيه (ديوب) اسما لسكان مصر العليا (النوبة) خاصة عندما يأتى مكررا (كاو كاو) (Kaou Kaou) ويخلص من كل هذا إلى أن الاسم (جاو) أو (Gao) (فى صنغهى) ليس إلا تحريفا للكلمة المصرية القديمة(كاو) مضيفاً أن بعض سكان الوسط فى السنغال لايزالون يحملون إلى اليوم اسم (كوكو) ، وفى تفسير الكلمة يرى شيخ أنتا أنها تعنى سكان الأماكن المرتفعة عند الولوف (السنغاليين) – تماما كما كان عند قدماء المصريين ويربط بين الكلمة وبين (كوكيا) التى كانت حاضرة لمملكة صنغهى .

جدير بالذكر أن عدداً من الأسماء تعد مشتركة بين بلاد النوبة السودانية ومناطق

النيجر – سنغال ، على وجه الخصوص ، منها إضافة إلى الاسم السابق (كوكو) هنالك صاى وكرمة ودنقل وامباكول وكور وغير ذلك كثير وقد أجرى اركل Arkell المدير الأسبق لمصلحة الاثار السودانية عددا من الدراسات القيمة حول صلة ثقافات النيل بالمناطق التى تقع الى الغرب منه ، ومن ذلك التشابه الملاحظ بين (النوبة) فى أقصى الشمال السودانى (والنوبا) فى الجبال الغربية منه .

هكذا يستمر شيخ انتاديوب فى إيراد كم هائل من الحيثيات والشواهد التى تدعم رأيه فى (وحدة الثقافة الإفريقية) وانطلاقها من قواعد مشتركة.

خاتمة وتعليق :

حاولت هذه الورقة القاء بعض الضوء على أهم أعمال ونتائج أبحاث هذا المؤرخ الإفريقى فى كفاحه المستمر لإثبات مشاركة الإنسان الأسود فى مسيرة البناء الحضارى لبنى البشر ، وقد سعى لتحقيق ذلك من خلال أبحاث وفرضيات دافع عنها وأن ظلت مكان تحفظ من بعض الأوساط البحثية لكونها على أحسن الفروض فرضيات مثيرة للجدل ، ورغم ذلك فقد أضاف شيخ أنتاديوب الكثير إلى المعرفة التاريخية بالشأن الإفريقى و إن كان يؤخذ عليه فى هذا الصدد :-.

١/ الاستطراد الملاحظ وتعمد إيراد كثير من التفاصيل مع تكرار ظهورها فى أكثر من مؤلف ورسالة.

٢/ الترخّص المطلق فى الاعتماد على علم اللغة(الفيلولوجيا) وما يتصل به من اشتقاقات لغوية (تمولوجية) فى دعم فروضه التاريخية ، خاصة حينما يقارن باسهاب بين الهيروغلوفية والولوفية المعاصرة لأن فى تلك المقارنة بين المنطوق فى الولوفية وغير المنطوق تماما فى الهيروغلوفية التى تعد لغة مكتوبة أكثر منها منطوقة وذلك لصعوبة نطق حروف العلة المكملة للفونيمات المصرية ، وعليه سيظل القياس اللفظى لكثير من الكلمات التى أوردها الباحث فى المقارنة بين الهيروغلوفية والولوفية بعيدا عن تحقيق المطلوب على الرغم من التشابه اللافت للنظر بين بعض كلمات اللغتين .

٣/ النهج الاستشراقى الذى أعتمده الباحث (ديوب) فى تقويم الأثر الإسلامى ودوره فى نهضة الشعوب والمجتمعات الإفريقية وذلك انطلاقا من قناعاته الماركسية الفرانكفونية فى النظر الى (الدين) واختزال أثره فى إحداث التحول الاجتماعى فى تاريخ المجتمعات والشعوب ، فقد كتب فى مقدمة الطبعة الأولى لكتابة (الشعوب الزنجية والثقافة) والصادر ١٩٥٤ بعنوانه الفرنسى Nations Negres et Culture (إن الذى ينطلق من مبادىء ماركسية فى فهمه لمجريات الأمور يجد نتائج متشابهة فى قراءته لهذا المؤلف ويصل إلى نتائج مشتركة ، ولكن فليكن معلوما بأنى لا أناقش هنا مصداقية الديانة الإســـــلامية أو المسيـــحية .. إن الدين فـــى نظرى يعدد قضـــية شخصية. "La Religion est une affaire Personelle"

٤/ الهجوم غير المبرر على منهج الإسلام فى التعامل مع الوثنيات عبر صراعه المستمر لنفى ثقافات الشرك تمكينا لثقافة التوحيد فيقول فى جرأة تفتقر إلى الفهم السليم (إن الإسلام على خلاف المسيحية (الحالية) لم يهتم بالماضى (غير الإسلامى) بينما يهتم الغرب (الحالى) بفخر بالماضى الإفريقى الوثنى، ويسعى جاهدا لحفظ آثاره ، وهذا مالايوجد فى أى بلد مسلم ، فالماضى الوثنى هنالك ينبغى أن ينسى ويدفن نهائيا .. إن انشاء متحف للآثار السبأية (سبأ) فى مكة سيعد عملا يحرم التفكير فيه من وجهة النظر الإسلامية .. وهذا الذى يجعل السود فى الخرطوم يبرأون من الانتماء لحضارة مروى بينما تصل مخلفات هذه الحضارة الى ٨٤ إهراما) !(٣٠) .

إن هذا النص ليعكس صراحة ضعف فهم الباحث لموقف الإسلام من هذه الوثنيات ، ويكشف عن معتقداته المادية فى فهم وتقويم مقاصد الشريعة الإسلامية فى سعيها لتحرير الإنسان من ثقافات الخوف التى بثتها الوثنيات وذلك أملا فى الوصول بالإنسان عبر التوحيد إلى العقيدة السليمة القائمة على التوحيد وهنا فى إفريقيا عانى إنسان القارة كثيرا من التعسف الوثني وطبائع الاستبداد فى الحكم والسياسة والاجتماع فكان من مطلوبات الدين والعقيدة فى الإسلام تجاوز كل آثار ومخالفات ذلك الماضى ، وبجانب كل هذا فات على الكاتب السنغالى ما أدركه غيره من المؤرخين المحدثين فى إفريقيا وغيرها من أن الاستعمار الذى يسميه انتاديوب تحرزا فى هذا النص بـ(المسيحية الحالية) تارة و (الغرب الحالى) تارة أخرى ، إنما أبدى اهتمامه الشديد بالماضى الإفريقى ليصادر تطلعات الإفريقيين ، قبل الاستقلال وبعده -فى الخروج من دائرة ثقافات الرقص والأقنعة كما يقول الافريقى كى -زيربو - وذلك فى تواطؤ مدروس بين الانثربولوجيا الغربية والاستعمار لابقاء الماضى الإفريقى على هيئة فلكورية متحفية لاينفك عنها الإنسان الإفريقى كما ظل يؤكد ذلك الكاتب الفرنسى جيرار لكليرك(٣١) ، أما قوله بأن السود فى الخرطوم ظلوا يتبرأون من الماضى الإفريقى فلا يعدو أن يكون افتئانا بيناً على الواقع ، حيث لايزال السودانيون يتغنون بـ (طهرقا) فى بعض اناشيدهم القومية ، ومتحف السودان القومى بمقتنياته الأثرية من حضارات كرمة

ونبتة ومروى يدحض مقولة هذا الكاتب الإفريقى الذى يعد من أعلام المؤرخين فى إفريقيا جنوب الصحراء ..

٥/ الخلط المستمر بين الأسطورة والتاريخ وقيم الدين ، ومـــن ذلك قــوله إن ديانة(أوزريس) هى الأولى التى استحدثت فى تاريخ البشرية مفهوم (الجنة) و(النار) وكيف أن ذلك كان قبل موسى بالفى سنة وقبل المسيح (عليه السلام) بثلاثة آلاف سنة ويسترسل انتاديوب فى وصف الطريقة التى يمر عليها جميع الموتى فـــى الديانة المصـــرية ، وعلى (الصراط) فى الإسلام ، وكأنه لم تكن ثمة رسالات سابقة قبل اليهودية والمسيحية والإسلام !

٦/ النهج التعسفى فى التأصيل للثقافة الإفريقية وذلك من خلال محاولاته الربط المباشر بين الحاضر الإفريقى والماضى الفرعونى مع تعمد إغفال الدور الإسلامى الذى نجح فى تكوين ثقافة قومية جذبت أكثر من ٩٥٪ من سكان بلاده السنغال وماجاورها.

٧/ عدم الوصول إلى إجابة واضحة أو تفسير مقبول لظاهرة غياب التتابع الثقافى Cucture sequenle فى مجتمعات الزنوج القديمة التى أنشأت الحضارة الفرعونية بكل مخلفاته المادية والأثرية والمجتمعات الزنجية الحديثة ، والاكتفاء بإرجاع ذلك إلى وجود (فجوات) تاريخية مفقودة .

٨/ الوقوع فى مأزق التفسير العرقى للتاريخ :

تعد مدرسة التفسير العرقى للتاريخ مدرسة سادت ثم بادت فى ظل التطور الكبير الذى شهدته (فلسفة التاريخ) ومدارسه المختلفة منذ العقود الأخيرة من القرن الماضى حيث أجمع علماء التاريخ والاجتماع على ضـرورة الفصـــل بين الجـــنس (العرق) و (الابداع) فى التاريخ وهو مبدأ اسلامى قديم جدده عدد من العلماء وقال به حديثا البنائيون الفرنسيون من امثال كلود ليفى ستراوس وغيره فأبانوا خطـــورة الربط بـــين (العرق) و (الثقافة) والإنجاز ، إلا أن المؤرخ أنتاديوب ظل يرى أن مقـــولة فـــصل (الجنس) حينما تصدر عن جهات اعتبرت الجنس الأسود ولقرون طويلة جنسا ضعيف المشاركة فى الانجازات الحضارية ، لا يفهم إلا أن يكون ضربا من التمويه الذى يضاف إلى مؤامرات (الغرب) المستمرة

فـى تجريد الإنسان الأسود من إبداعاته التاريخية .

٩/ التهافت التغريبى في محاولاته للجمع بين ثقافات الغرب الأوربية الإغريقية واللاتينية والولوفية الإفريقية ، فالمؤرخ السنغالي يبدو مسكوناً بهاجس المقاربة بين هذه الثقافات... فالباحث الذى ظل طوال حياته مهتما بالماضي الإفريقي وثقافاته كمؤرخ أصيل لتيار الزنوجة الذى شغل المثقفين الفرانكفونيين آنذاك ، لايفوته عند مقاييساته المستمرة لثقافات إفريقيا بمقاييس الإنجاز الأوربي الفرانكفوني خاصة ، أن يقوّم مجاهدات بعض الزعماء المسلمين بانجازات بعض أعلام التاريخ الفرنسي الحديث ، كما ظل يسعي بحكم ثقافته الفرانكفونية المتجذّرة يقارب بين الإفريقية والفرانكفونية فيرى من المفيد وبلاده تحت نير الاستعمار أن يخبر قراء كتابه المشهور (Nations Negres Et Culture) بأن الجنور الاشتقاقية لاسم العاصمة الفرنسية باريس لاتعدو أن تكون فى نهاية المطاف جذورا ولوفية سنغالية ... فيكتب فى ذلك نصاً :-

La Racine Meme du Nom de la Capitale de la France serait quant au fond une Racine du valf (wolf) actuel ...

****

وهكذا ففى مواجهة المقولة التى أشاعها الغرب بأن الجنس الأسود لم يقم بشىء فى (التاريخ) ، جاء شيخ انتاديوب ليقول على النقيض من ذلك أن الجنس الأسود قام بكل شىء في التاريخ ...

الهوامش :

١- القرآن الكريم ، سورة الحجرات الآية ، ١٣ .

٢- Herodote , L'histoire , P. 392 Paris 1962

٣- Okot , Pbiteck , African Religion in Western Scholarship , VII , Kampala , 1960

٤- Claude Wauthier , L'Afrique Des Africains , P. 81 , Paris 964

٥ - Ibid P. 81

٦- F. Fanon , Peau Noire Masques blancs , P. 13, Paris 1975

٧. جمال محمد أحمد ، وجدان إفريقيا ، ص ٩٥ - الخرطوم ١٩٧٤م

٨- ستراوس ، ليفى كلود ، العرق والتاريخ - الترجمة العربية ، ص ٦ - بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٩- نفس المرجع ص ٢٠

١٠- د. محمد حسن عبدالعزيز، الفيلوجلوجيا وعلم اللغة ، ص ١٧١ ، القاهرة ١٩٨٣م

١١. Leonard Cottrell , the Concise Encyclopedia of Archoelogy , P, 93 ,London 1977

١٢. د. شيخ انتاديوب ، مقال أصل المصريين القدماء ، ص ٤٩ ، تاريخ إفريقيا العام ، المجلد الثانى ، النسخة العربية ، ايونسكو ١٩٨٥م

١٣- د. محمد عبدالغنى سعودى ، قضايا إفريقية ، ص ص ١٥- ١٧ - الكويت ١٤٠٠هـ. ١٩٨٠م

١٤- Ch.Anta Diop , Civilisation ou Barbarie , P. 19, Paris 1981.

١٥- Ibid , P. 19

١٦- Leonard Cothrell , op. cit p.11

١٧- Ch. Anta Diop , Nations Negries et culture , P.24 Paris 1979

١٨- مايرز ، ج . ل فجر التاريخ - الترجمة العربية ، ص ٥٠ القاهرة ١٩٦٢م

١٩- جورج بوزنيه ، معجم الحضارة المصرية القديمة ، الترجمة العربية ، مادة الأجناس ، ص ١٣ ، القاهرة ، ٢٠٠١م

٢٠. George Childe, L;orient - , Prehistorique. p. 73 , Faris 1953
٢١. Ibid , P. 79
٢٢. don Basil Daividson , Africa in History P P. 21- 22 Lon 1968
٢٣. Hegel , G.F. The Philoophy of history P.P. 91 92 New York , 1956
٢٤- Claude Wantier , op. cit P. 88
٢٥- Ch . Anta Diop, Nations Negres et Culture , op. cit ,. 133
٢٦- Ch. Anta Diop , Anteriorite des Civilisatiions Negeres , P. 34 ,Paris 1967 .
٢٧- Pre - Coloniale , P. 204 , -Ch. Anta Diop , L'Afrique Noire Paris 1987
٢٨- Ibid , PP. 211 , 212
٢٩- Ibid , P. 213
٣٠. Ch. Anta Diop ,L'Afrique Noire Precoloniale , op.ci, P. 161
٣١- جيرار لكليرك ، الانثروبولوجيا والاستعمار ، الترجمة العربية ، ص ١١٧ بيروت ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م

الملاحق :

تعريب قائمة جبريل صعب المختارة لاعمال شيخ انتاديوب

١- دراسة للغة الولوف - منشورات الوجود الإفريقى ، مجلد ، ٤ ، عدد صفحات ١٢ صفحة سنة ١٩٤٨م

٢- دراسة للغة الولوف - منشورات الوجود الإفريقى ، مجلد ٥ ، ٨٠٠ ، سنة ١٩٤٨م

٣- متى يمكن الحديث عن نهضة ، إفريقية ؟ سنة ١٩٤٨م

٤- اشعوب الزنجية والثقافة ، دراسة للمشكلات الثقافية لافريقيا لواء من عصور الفراعنة الى اليوم ، عدد الصفحات ٣٩٠ صفحة باريس ١٩٥٤م

٥- الوحدة الثقافية لافريقيا السوداء ، داكار ، ٢٠٣ صفحة باريس ١٩٥٤م

٦- دراسة مقارنة للنظم السياسية والاجتماعية فى أوربا وافريقيا منذ العصور القديمة حتى تأسيس الدول الحديثة (اطروحة) باريس ١٩٥٩م

٧- أسس المقومات الثقافية والتقنية والصناعية لمستقبل الدولية لفيدرالية فى افريقيا السوداء . عدد الصفحات ١١٥ ، الوجود الافريقى ، باريس ١٩٦٠م

٨- التاريخ البدائى للانسانية ، تطور عالم السود ، مجلة ايفان ، مجلة رقم ٤٠٣ داكار ١٩٦٢م

٩- اجابة عن بعض الانتقادات - مجلة إيفان - داكار ١٩٦٢م

١٠. سلفور الحديد الطبيعى فى منطقة (جيس) مقال ، داكار ١٩٦٢م

١١- اسبقية الحضارات الإفريقية ، اسطورة ام حقيقية . تاريخية - الوجود الافريقى - ٣٠١ صفحة باريس ١٨٦٧م

١٢. ظهور الانسان العاقل (هوموساينى) مجلة ايفان - رقم ٣/١٩٧٠م

١٣- التاريخ بطريقة الكاربون ١٤ المشع - مجلة ايفان ١١صفحة ١٩٧١م

١٤- مدخل لدراسة الهجرة فى افريقيا الوسطى والغربية مجلة ايفان ١٩٧٣م

١٥- تعدين الحديد فى الامبراطورية المصرية القديمة - مجلة ايفان ١٩٧٣.

١٦ - الاصباغ الجلدية فى قدامى المصريين - فحص بالميلانيين - ايقان ١٩٧٣م

١٧.- الطبيعة الذرية والتراكم المطلق ، عدد الصفحات ١٥٥ ، ١٩٧٤م

١٨. الاثار الافريقية - مقال - سنة ١٩٧٥م

١٩- كيف نؤصل للعلم فى إفريقيا ؟ على سبيل المثال الولوف -ايقان ، ١٩٧٦م
٢٠- استعمال الحديد فى إفريقيا - مقال - بتاريخ ١٩٧٦م
٢١- صلة القرابة بين اللغة المصرية الفرعونية واللغات الافرو زعته . مسلسلة Nea، رقم ٣٢ - من ٤٠٢ صفحة ١٩٧٧م
٢٢- حضارة أم همجية ؟ انثروبولوجيا دون تحيز - ٢٥٦ صفحة باريس ١٩٨١م
٢٣- فى الفلسفة والعلم والدين - مقال فى المجلة الفلسفية السنغالية يناير ١٩٨٤م س